باكثير .. ذكريات وخواطر

د. شهاب غانم

اليمن كما انشأ صحيفة فتاة الجزيرة أول صحيفة مستقلة في اليمن وكانت تطالب بالحكم الذاتي منذ مطلع الحرب العالمية الأولى كما أنشأ أول صحيفة انكليزية بعد ذلك ونشر أول رواية يمنية كما نشر عددا من الكتب السياسية والأدبية منها "بماذا تقدم الغربيون" الذي كتب مقدمتة الامير شكيب أرسلان. وكان لقمان يكتب الشعر التقليدي في تلك الفترة ولكنه كما ذكر هو نفسه في بعض كتاباته انه بعد ظهور شعراء حقيقيون أمثال عبد المجيد الاصنج ومحمد عبده غانم وابنه البكر علي محمد لقمان هجر الشعر الى غير رجعة. وعلى الرغم من علاقتي الشخصية الوثيقة به إلا انني لم اقرأ له شعرا وأذكر انه ذات مرة قرأ علي وعلى شقيقي الدكتور الشاعر قيس ونحن في الثانوية معلقة عنترة من الذاكرة وكان إلقاؤه رائعا.

كان لقمان يكبر باكثير بنحو عشرة أعوام ويبدو أنه كان يتبادل القصائد مع باكثير كما يبدو من ابيات باكثير التالية الى لقمان:

رأيت رسائلك الوافيه عقودا من الدرر الغالية
فشعر رقيق أسير القوافي وشعر طليق بلا قافيه

وقد أخبرني الدكتور محمد أبوبكر حميد أنه لم يجد بين أوراق رسائل لقمان الكثيرة الى باكثير سوى قصيدة واحدة للقمان. وعلى كل حال فإن هموم الرجلين حول مستقبل الامة وحول الادب والرواية والشعر والفكر كانت واحدة أو متقاربة. يقول باكثيرفي إحدى قصائده الكثيرة الموجهة الى لقمان:

فدم ياسيدي لقمان حيا وسلوى للعليل وللحزين
فكم فرجت من همي وضيقي وكم كفكفت من دمعي الحزين

وعندما رحل محمد علي لقمان عام ١٩٣٣ الى بربرة في الصومال حيث ذهب مديرا لشركة"البس" لم يطق باكثير الحياة بعيدا عن عطفه وتلك العلاقة الادبية والفكرية فتبعه الى الصومال ونزل في هرجيسة عاصمة الصومال البريطاني آنذاك فكتب الى لقمان قصيدة منها:

قسما ما لنا سواك ملاذ فحنانيك أيها الأستاذ
لو تعطفت فانثنيت إلينا لاستتبت لنا المنى والملاذ
في ربى هرقيسا هواء وماء ورياش ووابل ورذاذ
غير انا وانت لست لدينا مالنا في ذرى الجمال نفاذ

بل ان باكثير قد أهدى ديوانه "العدنيات" الذي مازال مخطوطا الى امرأة لراحلة لم يسمها (اغلب الظن أنها زوجته التي فجع بوفاتها شابة) وإلى محمد علي لقمان.

وعلاقة باكثير بالشيخ البيحاني كما ذكرت تعود أيضا الى مايسمى "بالفترة العدنية" في حياة باكثير وقد حضر باكثير مع الشيخ مؤتمرا للوفاق في جبوتي بين المجموعات العربية المتخاصمة وألقى قصيدة امتدح فيها الشيخ على توفيقه بين المتخاصمين ومنها:

نورا أرى ملأ الفضاء بريقا في الشاطئ الشرقي من أفريقا
لم يأل منطقه وحسن بيانه لقلوبهم رغم اللظى ترقيقا
إيه "محمد" لا عدمت كفاءة قد طوقتك بفخرها تطويقا

أعود الى لقائي اليتيم بباكثير ففي ذلك اليوم من ايام ربيع ١٩٦٨ شعرت بأنني شخص محظوظ إذ قضيت بضع ساعات في رفقة ثلاثة من الرجال الافذاذ في تاريخ اليمن الحديث. رجال تركوا بصماتهم على الحركة الاصلاحية والتعليمية وعلى الفكر والادب وخلفوا الكثير من الآثار والكتب القيمة. وقدتعاملوا معي كأني واحد منهم ولم يشعروني مطلقا بأني تلميذ في حضرة أساتذة بل تبسطوا معي في الحديث وخاصة باكثير خصوصا عندما عرف أنني مهندس ذو ميول أدبية. كان ثلاثتهم أقل مني قليلا في الطول وربما كان باكثير أقصرهم قامة. كان الشيخ البيحاني يلبس الجبة وعمة علماء الدين أما باكثير فكان يلبس بدلة غربية رمادية اللون وكان مبتسما معظم الوقت وتبدو عليه السعادة الغامرة والاسترخاء ولعل تلك السعادة كانت بسبب لقائه صديقين عزيزين على قلبه بعد كل تلك العقود. كان يتحدث معي بصوت هادئ أقرب إلى الخافت بوجه بشوش يجعله قريبا الى النفس وشعرت أنه بصحة جيده. وتطرق الحديث الى مصر وما كان يتعرض له كأديب عروبي إسلامي من مضايقات بسبب الايدلوجيين ضيقي الافق في تلك الفترة والى ما رآه في اليمن الجنوبية خلال زيارته واتضح انه عدل عن أي تفكير في العودة الدائمة الى حضرموت أو عدن بعد ان رأى بدايات مساوئ الحكم الشمولي فمعاناته في مصر تظل أهون الشرين. وكان قراره صائبا. وكنت نصحت والدي أيضا أن يهاجر ولو مؤقتا فأبى ولكنه اضطر ان يفعل ذلك بعد أقل من اربعة أعوام .

بعد ذلك اللقاء الذي بقي محفورا في الذاكرة بعام ونصف تقريبا رحل باكثير إلى عالم آخر لا يرى فيه المرء ظلم الانسان لأخيه الانسان وقد رثاه والدي مع عدد كبير من الشعراء في مختلف الدول العربية ومما قاله والدي في تلك المرثاة وهو يتذكر صداقته بباكثير في أوائل الثلاثينيات، وكما علمت من الموقع الذي أنشأه الاستاذ عبدالحكيم الزبيدي فقد زاره والدي برفقة شقيقي الدكتور نزار غانم في مصر عام ١٩٦٩ :

لم يمض منذ رأيته إلا القليل من الشهور
في داره في ضفة النيل المصفق بالنمير
وهو الكثير فليس ينسى الود للماضي الاثير
أيام تجمعنا به عدن على الامل المنير

منذ بضع سنوات نشرت مقالا في الخليج جاء في مقدمته أنه يحق لليمن وبالذات حضرموت أن تقول إن باكثير ينتمي إليها فهو حضرمي الوالدين والنشأة ويحق لمصر أن تقول إنه ينتمي إليها "فالمرء حيث ثبت وليس حيث نبت" وفي مصر طارت شهرته ونال الجوائز الادبية وبعضها من عبدالناصر نفسه الذي وافق على إعطائه منحة تفرغية لكتابة ملحمة عمر وهي منحة ربما لم تعط لغيره من الادباء المصريين، وفي مصر تزوج وفيها دفن. كما يحق لإندونيسيا أن تقول إنه ينتمي إليه ففيها ولد وقضى طفولته وكل وطن يحب أن ينتمي إليه العظماء والناجحون.

وقد لاحظت في الموسوعة الشعرية التي اصدرتها مؤسسةجائزة عبدالعزيز البابطين عام ٢٠٠١ بعنوان "مختارات من الشعر العربي في القرن العشرين" والتي جاءت في خمسة مجلدات أن باكثير ظهر في القسم الخاص باليمن واختار له معدا القسم الدكتور عبدالعزيز المقالح والشاعر محمد حسين هيثم قصيدة بعنوان "واقفة بالباب". كما ظهر في القسم الخاص بمصر والذي اعده الدكتور عبدالقادر القط وعماد غزالي واختارا له مقطعا من مسرحيته "اخناتون ونفرتيتي" وهي التي كانت من تاليفه وكتبها بالشعر التفعيلي (أو ما يسميه بعضهم بالحر وهي تسمية يطلقها بعضهم على ما يسمى بقصيدة النثر) وكانت المسرحية على وزن المتادرك وهو أقرب الاوزان في نظري الى النثر، كتبها عام ١٩٣٨ ونشرها عام ١٩٤٠ وكان قبل كتابتها بثلاثة أعوام قد ترجم مسرحية شكسبير "روميو وجولييت" مستخدما الشعر التفعيلي الذي أسماه يومها "النظم المرسل المنطلق" أي المرسل من القافية (وكانت هناك قبله محاولات كمحاولة محمد فريد ابوحديد لإرسال القافية مع الاحتفاظ بالوزن الخليلي للبيت الكامل) وكان باكثيرهنا يحاول أن يترجم المصطلح الانكليزي running blank verse والحقيقة أن باكثير كان قد في هذين العملين قد وقع على الشعر التفعيلي وسبق بذلك السياب ونازك الملائكة بنحو عشرة أعوام. وباكثير ذكر في أكثر من مكان ان السياب كان يذكر له هذا السبق. ولكن الساحة الادبية ظلت لسنوات تنسب هذا الشكل للسياب ونازك وتختلف عمن منهما الاسبق اليه.

والحقيقة ان موسوعة البابطين المذكورة وضعت الشاعر أحمد السقاف المولود في اليمن في القسم الكويتي ولم تذكره في القسم اليمني على الرغم مما قدمه السقاف لليمن من المشاريع الهامة كعضو منتدب للهيئة العامة للجنوب والخليج وعلى الرغم من زياراته المتكررة لليمن كما ذكرتني أنا شخصيا في القسم الخاص بالامارات ولم تذكرني في القسم اليمني على الرغم من كتاباتي العديدة عن شعراء اليمن وعلى الرغم من أن والدي وخالي علي لقمان في القسم اليمني من الموسوعة. ولكن يمكن أيضا القول إن شاعرة معروفة بحرينية الأصل مثل ثريا العريض سجلت في القسم السعودي فقد تزوجت من سعودي واستوطنت في السعودية وهي ابنة الشاعر البحريني الكبير ابراهيم العريض المذكور في القسم البحريني. ولكنا بالمقابل نجد شاعرا بحريني المولد هاجر وتوفي في قطر هوعبد الرحمن المعاودة مذكورا في قسمي بحرين وقطر في نفس الموسوعة وبقصيدتين مختلفتين بل إن احد القسمين يذكر أن وفاته كانت عام ١٩٩٦ بينما يذكر القسم الاخر انها كانت عام ١٩٩٧ وحبذا لو تجنبنا مثل هذا التناقض في نفس الكتاب أو الموسوعة.

وانا نفسي عندما ترجمت مختارات من الشعر اليمني ونشرتها في كتاب اخترت قصيدة "الشهيد" لباكثير ضمن الكتاب وهي القصيدة التي يقول فيها:

فيم احتشادكم هذا لتأبيني أنتم أحق بتأبين الورى دوني

وعلى كل حال فأنا أرى ان الشعراء الذين ينتمون الى اكثر من قطر عربي يعدون همزة وصل بين القطرين ويساهمون في التقارب بين ابناء هذه الامة بعيدا

عن الإقليمية الضيقة.

وأظن أن باكثير كان يمكنه الانتماء الى مصر واليمن واندونيسيا بنفس السهولة.

ونحن اذا عدنا الى شعرائنا في العهد العباسي مثلا نشعر انهم ينتمون في الغالب الى الامة بلغتها وفكرها وحضارتها وثقافتها وليس الى بلدان معينة بل لانعرف اين ولد الكثير منهم وان حفظنا الكثير من أشعارهم. كم منا من يعرف أين ولد البحتري أو العباس بن الاحنف؟

أعود إلى مقالي في صحيفة الخليج فاذكر انني قلت في نهايته ان شهرة باكثير في مصر تذكرنا بالشهرة التي اكتسبها عمارة اليمني عندما هاجر الى مصر في أواخر عهد الفاطميين ولقي لديهم الحفاوة على الرغم من أنه تمسك بالبقاء على مذهبه السني. فالأدباء في الدول الاطراف كانوا ينالون الشهرة عند الانتقال الى الحواضر الكبرى وان كانت الصحافة و وسائل الإعلام اليوم قد يسرت للادباء في الاطراف أن يعرفوا في مختلف أرجاء العالم العربي.

٤) هل ظلم باكثير؟

يقول الاديب الروائي الكبير نجيب محفوظ وكان في وقت من الاوقات يشاركه نفس المكتب في إحدى الدوائرالحكومية، أنهما ظهرا معا واشتركا في جائزة السيدة قوت القلوب الدمرداشية عن روايتهما رادوبيس وسلامة القس ويرى أن باكثير أديب عظيم ولكنه مسرحي أكثر منه روائي. ويرى أن باكثير لم يظلم رغم صيحته في الصحف قبل وفاته "لقد ذبحوني" ويقول : (كيف ظلم؟ انه كروائي نشرت أعماله وما يصلح منها للسينما تم تقديمه وهو كمسرحي تم تمثيل الكثير من اعماله المسرحية في حياته وبعد مماته، اما اذا مات وفي ذهنه شيء لم يتم في حياته فهذا ليس ظلما ولكنها ارادة الله).

ولا أدري كيف غاب عن نجيب محفوظ ذلك الظلم الذي كتب عنه كثير من الادباء المصريين أنفسهم فالصرخة (لقد ذبحوني) التي أطلقها باكثير وهو الرجل المتواضع الصبور لم تكن الا بسبب التعتيم الذي عانى منه من بعض النافذين المعادين لاتجاهه الاسلامي والعروبي والذين وقفوا ضد تقديم اعماله على المسرح ونشر كتبه. بل ان بعض كتبه نشرت ولم تغادر المخازن. وذلك الظلم هو الذي دعا باكثيرالى الفكير في آخر عمره بالعودة الى موطنه الاصلى هروبا من ذلك الظلم ولكنه أدرك أن الظلم هناك كان أدهى. ثم ان باكثير كان أول من كتب شعر التفعيلة ولكن ذلك الشكل ظل الى يومنا غالبا ما ينسب الى غيره، فأي ظلم بعد ذلك الظلم. ومن الضروري أن نعيد الحق الى نصابه بالتأكيد على ان شعر التفعيلة هو انجاز باكثيري في المقام الاول، دون طمس أفضال الآخرين الذين رسخوا وطوروا ذلك الشكل المهم في تاريخ شعرنا الطويل.

مساحة